المرتكز الثاني

فقه الأولويات «فقه مراتب الأعمال»

الأولويات في اللغة : جمع والمفرد : أول ؛ و نقيضه آخر . ومؤنثه أولى ، وتجمع على أوليات .

وأولى : أفعل تفضيل بمعنى الأحق والأجدر والأقرب [1].

الأولويات في الاصطلاح : يعد المعنى الاصطلاحي أقرب ما يكون من المعنى اللغوي ، ولهذا فيمكن القول بأن الأولويات في الاصطلاح هي : الأمور والأعمال والأشياء التي من حقها التقديم على غيرها .

ماذا يعني القرضاوي بفقه الأولويات ؟

ويعني القرضاوي بفقه الأولويات : أنه وضع كل شيء في مرتبته بالعدل ، من الأحكام والقيم والأعمال ، ثم يقدم الأولى فالأولى ؛ بناء على معايير شرعية صحيحة ؛ يهدي إليها نور الوحي ، ونور العقل [2].

وبعبارة أخرى : إعطاء كل عمل قيمته أو «سعره» في ميزان الشرع لا نبخسه ، ولا نشتط في تقويمه [3].

وهذا يقتضي ألا يقدم غير المهم على المهم .

ولا المهم على الأهم

ولا المرجوح على الراجح .

---

(١) انظر : الصحاح الجوهري ج٥ ص ١٨٣٨ . و انظر : لسان العرب ج١٥ ص ١٩٥ .

(٢) انظر : في فقه الأولويات ص ٩ بتصرف .

(٣) انظر : السياسة الشرعية ص ٣٠٦ .

obeikandl.com

ولا المفضول على الفاضل .

ولا الفاضل على الأفضل .

ولا الصغير على الكبير .

ولا الفرعي على الأصلي .

ولا المكملات على الأركان .

ولا الأدنى على الأعلى .

ولا ما موضعه الهامش على ما موضعه الصلب [1].

إنه يعني :

أولوية الكم على الكيف .

أولوية النوع على الحجم ، فليست العبرة بالكثرة ولا بالضخامة .

أولوية الجوهر على الشكل .

أولوية العلم على العمل .

أولوية الفهم على الحفظ .

أولوية المقاصد على الظواهر .

أولوية الاجتهاد على التقليد .

أولوية القطعي على الظني .

أولوية التخفيف على التشديد .

أولوية التيسير على التعسير .

أولوية العمل الدائم على العمل المنقطع .

أولوية العمل المتعدي النفع على القاصر .

أولوية العمل الأطول نفعاً والأبقى أثراً .

---

(١) انظر : فى فقه الأولويات ص ٩ بتصرف .

obeikandl.com

أولوية عمل القلب على عمل الجوارح .

أولوية الأصول على الفروع .

أولوية الفرائض على السنن والنوافل .

أولوية فرض العين على فرض الكفاية .

أولوية حقوق العباد على حق الله .

أولوية الكبير على الصغير .

أولوية الواقع على المفترض .

أولوية المتفق عليه على المختلف فيه .

أولوية حقوق الجماعة على حقوق الفرد .

أولوية الولاء للجماعة والأمة على القبيلة والفرد .

أولوية ترك الكفر على ترك الكبائر .

أولوية ترك معاصي القلوب على معاصي الجوارح .

أولوية ترك الكبائر على ترك الصغائر .

أولوية تغيير الأنفس قبل تغيير الأنظمة .

أولوية الأساسيات على الهامشيات .

أولوية المصالح الضرورية على المصالح الحاجية .

أولوية المصالح الحاجية على المصالح التحسينية .

أولوية المصلحة المتعلقة بحفظ الدين على المصلحة المتعلقة بحفظ النفس .

أولوية المصلحة المتعلقة بحفظ النفس على المصلحة المتعلقة بحفظ النسل والمال [1].

---

(١) انظر : في فقه الأولويات ص ٩ وما بعدها ، وانظر : السياسة الشرعية ص ٣٠٦ وما بعدها .

obeikandl.com

فقه الأولويات ضرورة عقلية وفريضة شرعية :

والحق أن فقه الأولويات يعد ضرورة عقلية كما أنه فريضة شرعية ؛ أما كونه ضرورة عقلية فإن الفطر السليمة والعقول السويّة ، والقلوب النيرة تجمع على تقديم الأفضل على الفاضل ، والأحسن على الحسن ، والأهم على المهم . كما أنها كذلك تجمع على ارتكاب الضرر الأخف ، وقبول المفسدة الأقل في وجود ما هو أكثر ضرراً وأشد مفسدة .

وأما كونه فريضة شرعية فإن استقراء نصوص الشرع يؤكد هذا الأمر ومن ذلك :

١- قال تعالى:﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة:٢٧١). وهذا يوضح أن صدقة السر أولى وأفضل من صدقة العلن وفي كل خير .

٢- وقال تعالى : ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (القدر:٣). وفي هذا دلالة على أن هذه الليلة أفضل من غيرها وعبادتها أولى من عبادة غيرها .

٣- قوله ﷺ لمعاذ حين أرسله إلى اليمن : « إنك ستأتي قوما من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة ، تؤخذ من أغنيائهم ، فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[1] وهنا نلحظ أمر النبي ﷺ معاذاً أن يبدأ بالأهم فالمهم .

---

(١) رواه البخاري في المغازي (٤٣٤٧) ومسلم في الإيمان (١٩) عن ابن عباس .

٤- قوله ﷺ : «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[١].

وهنا نرى كيف أن رسول الله ﷺ جعل مدار الأعمال على صلاح القلب فهو الرئيس والملك .

٥- قوله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٢].

وهنا نرى كيف أن رسول الله ﷺ جعل الأساس هي الأعمال والقلوب لا الصور والأموال .

٦- قوله ﷺ : «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالفقه ، فإن كانوا سواء فأقدمهم هجرة »[٣].

وهنا قدم النبي ﷺ الأولويات : القرآن ثم السنة ثم الهجرة .

٧- قصة جريج العابد وفيها قال ﷺ : «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى ، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج ، كان يصلي ، جاءته أمه فدعته ، فقال : أجيبها أو أصلي ، فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات ، وكان جريج في صومعته ، فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى ، فأتت راعياً فأمكنته من نفسها ، فولدت غلاما ، فقالت : من جريج ، فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه ، فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام ، فقال : من أبوك يا غلام؟ قال : الراعي ، قالوا : نبني صومعتك من ذهب؟ قال : لا ، إلا من طين .

---

(١) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (١٠٢٨) رواه البخاري في البيوع (٢٠٥١) ومسلم في المساقاة (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير .

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤) عن أبي هريرة ، وفي رواية (إن الله لا ينظر إلي أجسادكم ولا صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم) .

(٣) رواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٧٣) عن أبي مسعود الأنصاري .

وكانت امرأة ترضع ابنا لها من بني إسرائيل ، فمر بها رجل راكب ذو شارة ، فقالت : اللهم اجعل ابني مثله ، فترك ثديها وأقبل على الراكب ، فقال : اللهم لا تجعلني مثله ، ثم أقبل على ثديها يمصه ـ قال أبو هريرة : كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص إصبعه ـ ثم مر بأمة ، فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثل هذه ، فترك ثديها ، فقال : اللهم اجعلني مثلها ، فقالت : لم ذاك؟ فقال : الراكب جبار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون : سرقت ، زنيت ، ولم تفعل»[1].

وهنا نرى تعرض جريج للفتنة إنما كان بسبب تقديمه للمهم على الأهم حيث قدم النافلة ـ وإن كانت صلاة ـ على طاعة أمه وهي فرض واجب فكان ما كان .

٧- قوله ﷺ : «وابدأ بمن تعول»[2]. وهنا واضح فيه تقديم الأولويات .

أدلة القرضاوي على فقه الأولويات :

وكعادة الشيخ استدل على ما ذهب إليه بآيات القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ ثم دلل بعد ذلك على ما ذهب إليه بمواقف للأئمة السابقين والعلماء المعاصرين ، ومن هذه الأدلة :

١- قوله تعالى : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة:١٩) .

٢- قوله ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها : لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[3].

٣- حديث عمر بن عبسة قال: قال رجل: يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال : «أن تسلم قلبك وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك، قال: فأي الإسلام أفضل؟

---

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٦) ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٠) عن أبي هريرة .
(٢) رواه البخاري في النفقات (٥٣٥٥) ومسلم في الزكاة (١٠٣٤) عن حكيم بن حزام .
(٣) رواه مسلم في الإيمان (٣٥) عن أبي هريرة .

قال : الإيمان ، قال : وما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت قال : فأي الإيمان أفضل ؟ قال : الهجرة ، قال : وما الهجرة؟ قال : أن تهجر السوء ، قال : فأي الهجرة أفضل ؟ قال : الجهاد ، قال : وما الجهاد ؟ قال : أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم ، قال : فأي الجهاد أفضل ؟ قال : من عقر جواده وأهريق دمه [1]».

قال الشيخ : ومن تتبع ما جاء في القرآن الكريم ثم ما جاء في السنة النبوية المطهرة في هذا المجال جواباً عن سؤال ، أو بياناً لحقيقة : رأى أنها قد وضعت أمامنا جملة معايير لبيان الأفضل والأولى والأحب إلى الله تعالى من الأعمال والقيم والتكاليف . [2]

هل القرضاوي بدعٌ في هذا الأمر ؟

لم يكن القرضاوي بدعاً في هذا الأمر ، ولكنه استقرأ التاريخ فوجد أن سلف هذه الأمة ودعاتها ومصلحيها كانوا يقدمون الأولى فالأولى ، والأهم فالمهم ، وقد ساق القرضاوي مواقف منها :

١- ما رواه ابن أبي نعيم قال : جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن دم البعوض وفي رواية عن المحرم يقتل الذباب ؟ فقال له : ممن أنت ؟ قال : من أهل العراق ، قال : ها ، انظر إلى هذا يسأل عن دم البعوض وقد قتلوا ابن رسول الله ﷺ .

قال الحافظ ابن حجر : أورد ابن عمر هذا متعجباً من حرص أهل العراق على السؤال عن الشيء اليسير ، وتفريطهم في الشيء الجليل [3].

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٧٠٢٧) وقال مخرجوه حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه فمن رجال مسلم إلا أن أبا قلابة لم يدرك عمر بن عبسة . ورواه ابن ماجه (٢٧٩٤) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٢٥٣) .

(٢) انظر : في فقه الأولويات ص ١٠ .

(٣) انظر : فتح الباري ابن حجر ط دار الفكر ج ٧ ص ٩٥ ، وانظر: في فقه الأولويات ص ١٩٩.

وقال ابن بطال : يؤخذ من الحديث أنه يجب تقديم ما هو أوكد على المرء من أمر دينه [1].

٢- ما رواه ابن كثير في تفسيره لآخر سورة آل عمران والحافظ الذهبي في «سير الأعلام» وفيها أن عبد الله بن المبارك أرسل مع محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة رسالة إلى الفضيل بن عياض وفيها :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبارالأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبار أهل الله في ... أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب [2]

٣- ما جاء من كلام صاحب الإحياء الإمام الغزالي في طائفة من الأغنياء اشتغلوا بالأعمال البدنية دون الأعمال المالية فيقول : وفرقة أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى التفقه كصيام النهار ، وقيام الليل ، وختم القرآن ، وهم مغرورون ، لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم ، فهو يحتاج إلى قمعه بإخراج المال ، فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ، ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية ، وقد أشرف على الهلاك ، وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء ، ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكنجبين ؟

ولذا قيل لبشر : إن فلاناً الغني كثير الصوم والصلاة ، فقال : المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره ! وإنما حال هذا : هو إطعام الطعام للجياع والإنفاق

---

(١) انظر : فتح الباري ج ١٠ ص ٤٢٧ ، و انظر : في فقه الأولويات ص ١٩٩ .
(٢) انظر : تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٤٨ .

على المساكين ، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ، ومن صلاته لنفسه ، ومن جمعه للدنيا ومنعه للفقراء .

وقال ابن مسعود : في آخر الزمان يكثر الحج بلا سبب ، يهون عليهم السفر ، ويبسط لهم في الرزق ، ويرجعون محرومين مسلوبين ، يهوى أحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور لا يواسيه [1].

٤- ما قاله الإمام الراغب :

واعلم أن العبادة أعم من المكرمة ، فإن كل مكرمة عبادة ، وليس كل عبادة مكرمة ، ومن الفرق بينهما أن للعبادات فرائض معلومة ، وحدوداً مرسومة، وتاركها يصير ظالماً متعدياً ، والمكارم بخلافها . ولن يستكمل الإنسان مكارم الشرع ما لم يقم بوظائف العبادات ، فتحري العبادات من باب العدل ، وتحري المكارم من باب الفضل والنفل ، ولا يقبل تنفل من أهمل الفرض ، ولا تنفل من ترك العدل ، بل لا تعاطي الفضل إلا بعد العدل ، فإن العدل فعل ما يجب ، والفضل الزيادة على ما يجب . وكيف يصح تصور الزيادة على شيء هو غير حاصل في ذاته ولهذا قيل « لا يستطيع تصور الوصول من غير الأصول » .

فمن شغله الفرض عن الفضل فمعذور ، ومن شغله الفضل عن الفرض فمغرور ، وقد أشار تعالى بالعدل إلى الأحكام ، وبالإحسان إلى المكارم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ (النحل: ٩٠). [2]

٥- بقول شيخ الإسلام ابن تيمية :

فالعمل الواحد يكون فعله مستحباً تارة وتركه تارة ، باعتبار ما يترجح من مصلحة فعله وتركه بحسب الأدلة الشرعية ، والمسلم قد يترك المستحب إذا

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين الإمام أبو حامد الغزالي ط دار المعرفة بيروت ج٣ ص ٤٠٠ ـ ٤٠٩ ، وانظر : في فقه الأولويات ص٢٠٨ وما بعدها .

(٢) انظر : في فقه الأولويات ص ١١٨ .

كان في فعله فساد راجح على مصلحته ؛ كما ترك النبي ﷺ بناء البيت على قواعد إبراهيم وقال لعائشة : « لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية لنقضت الكعبة ، ولألصقتها بالأرض ، ولجعلت لها بابين بابا يدخل الناس منه وبابا يخرجون منه »[1] . فترك النبي هذا الأمر الذي كان عنده أفضل الأمرين للمعارض الراجح وهو حدثان عهد قريش بالإسلام ، لما في ذلك من التنفير لهم، فكانت المفسدة راجحة على المصلحة ، ولذلك استحب الأئمة أحمد وغيره أن يدع الإمام ما هو عنده أفضل إذا كان فيه تأليف المأمومين ، مثل أن يكون عنده فصل الوتر ، أفضل بأن يسلم في الشفع ثم يصلي ركعة الوتر ، وهو يؤم قوما لا يرون إلا وصل الوتر فإذا لم يمكنه أن يتقدم إلى الأفضل كانت المصلحة الحاصلة بموافقته لهم بوصل الوتر أرجح من مصلحة فصله مع كراهتهم للصلاة خلفه ، وكذلك لو كان ممن يرى المخافتة بالبسملة أفضل أو الجهر بها وكان المأمومون على خلاف رأيه ، ففعل المفضول عنده لمصلحة الموافقة والتأليف التي هي راجحة على مصلحة تلك الفضيلة ، وكذلك لو فعل خلاف الأفضل لأجل بيان السنة وتعليمها لمن لم يعلمها كان حسناً ، مثل أن يجهر بالاستفتاح أو التعوذ أو البسملة ؛ ليعرف الناس أن فعل ذلك حسن مشروع في الصلاة كما ثبت أن عمر بن الخطاب جهر بالاستفتاح فكان يكبر ويقول : « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك »[2] .

وإضافة إلى ما ساقه الشيخ القرضاوي نذكر كذلك :

١- كلام ابن القيم حيث قال رحمه الله في المدارج : فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله ، ومنازلها في الفضل ، ومعرفة مقاديرها ، والتمييز بين

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٤٨٤) ومسلم في الحج (١٣٣٣) عن عائشة .

(٢) رواه الترمذي في الصلاة (٢٤٢) وابن ماجه (٨٠٦) وأبو داود (٧٧٥) والحاكم (١/ ٢٣٥) وصححه محققا الزاد (١٩٨/١) وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٥٤٤) .

عاليها ، وسافلها ، ومفضولها وفاضلها ، ورئيسها ومرؤوسها ، وسيدها ومسودها؛ فإن في الأعمال والأقوال سيداً ومسوداً ، ورئيساً ومرؤوساً ، وذروة وما دونها ؛ ولايقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم ، السائرين على جادة التوفيق ، قد أنزلوا الأعمال منازلها ، وأعطوا كل ذي حق حقه [1].

٢- ما ذكره الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع أن أبا عبيدة قال : من شغل نفسه بغير المهم أضر بالمهم [2].

الدعاة المعاصرون يعملون بفقه الأولويات :

ومن الدعاة المعاصرين عدد لا بأس أقام دعوته مقدماً الأولى فالأولى والأهم فالمهم ، ومن هؤلاء :

١- الإمام محمد بن عبد الوهاب : وقد كانت الأولوية عند الشيخ للعقيدة وحماية التوحيد من الشركيات .

٢- الزعيم محمد أحمد المهدي : وقد كانت الأولوية عنده للجهاد وتربية أتباعه على الخشونة .

٣- الإمام حسن البنا : وقد كانت الأولوية عنده تصحيح فهم الإسلام لدى المسلمين وإعادة ما حذف منه على أيدي المتغربين والعلمانيين ، فقد أرادوه عقيدة بلا شريعة وديناً بلا دولة .

٤- الإمام المودودي : وقد كانت الأولوية عنده لمحاربة الجاهلية الحديثة ، ورد الناس إلى الدين ، والعبادة بمعناها الشامل ، والخضوع لحاكمية الله لوحده .

٥- الشهيد سيد قطب : وقد كانت الأولوية عنده للعقيدة قبل النظام ولتحقيق حاكمية الله في أرض الله . [3]

---

(١) انظر : مدارج السالكين ج ١ ص ٢٢١ .

(٢) انظر : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع الخطيب البغدادي ج٢ ص ١٦٠ .

(٣) انظر : في فقه الأولويات ص ٢٢٥ وما بعدها .

وينتج غياب هذا الفقه من سوء الفهم للدين ، وغياب مقاصد الشريعة عن الأذهان ، فإن من لم يقارن بين الأعمال ومنازلها فيقدم ما حقه التقديم ، ويؤخر ما حقه التأخير إنما هو جاهل كل الجهل بالشريعة وأحكامها ، فهو لا يفرق بين الحرام والمكروه ، ولا الواجب والمندوب ، ولا الضروريات والحاجيات ، ولا الحاجيات والتحسينات ، وتعد هذه سلبية من أكبر سلبيات الصحوة الإسلامية .

ولهذا عد شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الفقه خاصة العلماء بهذا الدين يقول رحمه الله : فتفطن لحقيقة الدين ، وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية والمفاسد ، بحيث تعرف ما ينبغي من مراتب المعروف ومراتب المنكر، حتى تقدم أهمها عند المزاحمة ، فإن هذا حقيقة العمل بما جاءت به الرسل ، فإن التمييز بين جنس المعروف وجنس المنكر ، وجنس الدليل وغير الدليل يتيسر كثيراً . فأما مراتب المنكر ومراتب الدليل ، بحيث تقدم عند التزاحم أعرف المعروفين فتدعو إليه ، وتنكر أنكر المنكرين : وترجح أقوى الدليلين ، فإنه هو خاصة العلماء بهذا الدين [1].

إن غياب فقه الأولويات عن فهم الناس وأذهانهم يغير النسب القائمة بين عبادة وأخرى ، فيجعل في المقدمة ما حقه التأخير ، وفي المؤخرة ما حقه التقديم ، بل يقيم معارك جانبية في أمور خلافية ، هي في أصلها قضايا فرعية ، ونحن في أمس الحاجة لا أقول إلى تركها ولكن إلى معالجتها بحكمة وروية ، وهذا ما حدا بالشيخ الغزالي ـ رحمه الله ـ أن ينوه إلى هذا الأمر ، فيقول رحمه الله في كتابه الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر : الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة ، هل هذه الشعب مركوم بعضها فوق البعض كيفما

---

(١) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ابن تيمية ص ٢٨ .

obeikandl.com

اتفق؟ هل هي كسلع اشتراها شخص من السوق ثم وضعها في حقيبته كيفما تيسر ؟ لا . . إنها شعب متفاوتة الخطر والقيمة ، ولكل منها وضع عتيد في الصورة الجامعة لا يعدوه .

والشبكة التي تكون شعب الإيمان كلها : تشبه الخارطة للجهاز العامل في إحدى الوزارات أو إحدى المؤسسات ، هناك مديرون ، وهناك مساعدون ، وهناك فعلة ، وهناك مراقبون ، وبين هذه وتلك : علاقات مرسومة ، ونظم إرسال واستقبال ، وتنفيذ وإنتاج . .

إن شعب الإيمان التي تعد بالعشرات : تشبه السيارة المنطلقة ، لها هيكل وطارات وقيادة ووقود وكوابح ومصابيح وكراسي وغير ذلك ، وكل منها له وظيفته وقيمته . . .

ومنذ بدأت الثقافة الإسلامية : والإيمان أركان ونوافل ، وأصول وفروع ، وأعمال قلبية وأعمال جسمية . . . !

والذي يحدث عند بعض الناس أن جزءاً ما من الإسلام يمتد على حساب بقية الأجزاء ، كما تمتد الأورام الخبيثة على حساب بقية الخلايا فيهلك الجسم كله . .

وقد كان الخوارج أول من أصيب بهذا القصور العقلي ، أو بهذا الخلل الفقهي : قاتلوا علياً أو يتبرأ من التحكيم ، وقاتلوا عمر بن عبد العزيز أو يلعن آباءه ملوك بني أمية .

وسيطرة فكرة معينة على الإنسان بحيث تملأ فراغه النفسي كله ، ولا تدع مكاناً لمعانٍ أخرى : شيء لا يستساغ .

وهذا التورم الذي يصيب جانباً دينياً معيناً هو السر وراء فقهاء لهم فكر ثاقب ، وليست لهم قلوب العابدين ، ومتصوفين لهم مشاعر ملتاعة ، وليست لهم عقول الفقهاء .

وهو السر وراء محدثين يحفظون النصوص ، ولا يضعونها مواضعها ولا يجيدون الاستنباط منها .

إن الدعوة الإسلامية تحصد الشوك من أناس قليلي الفقه كثيري النشاط ، ينطلقون بعقولهم الكلية ، فيسيئون ولا يحسنون .

ماذا يفيده الإسلام من شبان يغشون المجتمعات الأوربية والأمريكية ، يلبسون جلاليب بيضاء ، ويجلسون على الأرض ليتناولوا الطعام بأيديهم ثم يلعقون أطراف أصابعهم ، وهذا في نظرهم ـ هدي الرسول في الأكل والسنة التي يبدأون من عندها عرض الإسلام على الغربيين ، هل هذه آداب الإسلام في الطعام ؟

وعندما يرى الأوربيون رجلاً يشرب يبغي الشرب فيتناول الكأس ، ثم يقعد ـ وكان واقفاً ـ ليتبع السنة في الشرب ، فهل هذا المنظر الغريب هو الذي يغري بدخول الإسلام ؟

لماذا تجسم التوافه[1] على نحو يصد عن سبيل الله ، ويبرز الإسلام به وكأنه دين دميم الوجه ؟

ثم إن الدعوة إلى الإسلام : لا يقبل فيها عرض القضايا الخلافية مهما كانت مهمة عند أصحابها ، والأكل على الأرض أو بالأيدي : مسألة عادية وليست عبادية ، ومن السماجة عرض الإسلام من خلالها . ووضع النقاب على وجه المرأة أمر تناوله الأخذ والرد ، ولا يسوغ بحال تقديمه عند عرض دين الله على عباد الله .

وتدبر هذا الحديث الذي رواه البخاري في أسلوب عرض الرسالة الإسلامية كما أحكمه رب العزة ، عن يوسف بن ماهك قال : إني عند عائشة

---

(١) عظيمة هي هذه الكلمة من الشيخ الغزالي رحمه الله ؛ فليس في هدي المصطفى شيء تافه ، فرحمة الله على الشيخ ، وغفر الله لنا وله .

obeikandl.com

أم المؤمنين ﷺ إذ جاءها عراقي فقال : أي الكفن خير ؟ قالت : ويحك ! وما يضرك ؟ قال : يا أم المؤمنين : أريني مصحفك ! قالت : لم ؟ قال : لعلي أؤلف القرآن عليه ، فإنه يقرأ غير مؤلف . قالت : وما يضرك أيه قرأت قبله ؟ إنما نزل أول ما نزل منه : سورة من المفصل فيما ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام : نزل الحلال والحرام ، ولو نزل لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا أبداً ، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب : ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (القمر:٤٦)، وما نزلت سورة البقرة والنساء ، إلا وأنا عنده . قال : فأخرجت له المصحف فأملت عليه « أي السورة » [1].

لكن أناساً يشتغلون بالدعوة لا فقه لهم ولا دراية ، يسيئون إلى هذا الدين ولا يحسنون ، وفيهم من يمزج قصوره بالاستعلاء ولمز الآخرين [2].

وهذا أيضاً ما قرره الشيخ القرضاوي فيقول :

إن آفة كثير من فصائل الصحوة الإسلامية هو غياب فقه الأولويات عنها ، فكثيراً ما تهتم بالفروع قبل الأصول ، وبالجزئيات قبل الكليات ، وبالمختلف فيه قبل المتفق عليه ، ونسأل عن دم البعوض ، ودم الحسين مهراق ، ونثير معركة من أجل نافلة ، وقد ضيع الناس الفرائض ، أو من أجل شكل أو هيئة ، دون اعتبار المضمون .

وهذا هو الحال عند عموم المسلمين ، أرى الملايين يعتمرون تطوعاً في كل عام في رمضان وغيره ، ومنهم من يحج للمرة العاشرة أو العشرين ، ولو جمع ما ينفقه هؤلاء في هذه النوافل لبلغ الملايين ، ونحن نلهث من عدة سنوات لتجميع مليون دولار للهيئة الخيرية الإسلامية ، فلم نحصل على عشر المبلغ ، ولا نصف عشره ، ولا ثلثه ، ولو قلت لهؤلاء المتطوعين بالعمرة أو الحج :

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٩٣) .

(٢) انظر : الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر محمد الغزالي ص ٦٨ وما بعدها .

ادفعوا ما تنفقونه في رحلتكم التطوعية لمقاومة التنصير أو الشيوعية في آسيا وإفريقيا ، أو المجاعات هنا وهناك ، ما استجابوا لك ، وهذه آفة قديمة شكا منها أطباء القلوب [1].

ويقول في موضع آخر : وكثيراً ما نجد الذين حرموا نور العلم ورشد الفقه، يذيبون الحدود بين الأعمال فلا تتمايز ، أو يحكمون عليها بغير ما حكم الشرع ، فيفرطون أو يفرّطون ، وهنا يضيع الدين بين الغالي فيه والجافي عنه .

وكثيراً ما رأينا مثل هؤلاء ـ مع إخلاصهم ـ يشتغلون بمرجوح العمل ، ويدعون راجحه ، وينهمكون في المفضول ، ويغفلون الفاضل .

وقد يكون العمل الواحد فاضلاً في وقت مفضولاً في وقت آخر ، راجحاً في حال مرجوحاً في آخر ، ولكنهم ـ لقلة علمهم وفقههم ـ لا يفرقون بين الوقتين ، ولا يميزون بين الحالين [2].

ويضرب الشيخ مثلاً واقعياً لعدم فهم الأولويات فيقول : رأيت من المسلمين الطيبين في أنفسهم من يتبرع ببناء مسجد في بلد حافل بالمساجد ، قد يتكلف نصف مليون أو مليوناً أو أكثر من الجنيهات أو الدولارات ، فإذا طالبته ببذل مثل هذا المبلغ أو نصفه أو نصف نصفه في نشر الدعوة إلى الإسلام ، أو مقاومة الكفر والإلحاد ، أو في تأييد العمل الإسلامي لإقامة الشرع وتمكين الدين ، أو نحو ذلك من الأهداف الكبيرة التي قد تجد الرجال ، ولا تجد المال ، فهيهات أن تجد أذناً صاغية ، أو إجابة ملبية ، لأنهم يؤمنون ببناء الأحجار ، ولا يؤمنون ببناء الرجال !

وفي موسم الحج من كل عام أرى أعداداً غفيرة من المسلمين الموسرين يحرصون على شهود الموسم متطوعين ، وكثيراً ما يضيفون إليه العمرة في رمضان ، ينفقون في ذلك عن سخاء ، وقد يصطحبون معهم أناساً من الفقراء على نفقتهم ، وما كلف الله بالحج ولا العمرة هؤلاء .

---

(١) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ٣٧ .

(٢) انظر : في فقه الأولويات ص ١٥ .

فإذا طالبتهم ببذل هذه النفقات السنوية ذاتها لمحاربة اليهود في فلسطين ، أو الصرب في البوسنة والهرسك ، أو لمقاومة الغزو التنصيري في أندونيسيا ، أو في بنجلاديش ، أو غيرها من بلاد آسيا وإفريقيا ، أو إنشاء مركز للدعوة ، أو تجهيز دعاة متخصصين متفرغين ، أو تأليف أو ترجمة ونشر كتب إسلامية نافعة ، لوَّوْا رؤوسهم ، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون [1].

وإذا كان المثال السابق أوضح الشيخ فيه عدم فهم الأولويات من عوام الناس ، فإنه يضرب مثلاً آخر لعدم فهم الأولويات لكن من الدعاة والعلماء ، الذين انشغلوا بالحديث عن عذاب القبر ، وقضايا الحاجة في حين أن اليهود يهددون الأقصى ، وأمريكا تحتل العراق! وعن هؤلاء يقول الشيخ : فكثير ما رأينا بعض المتحدثين الدينيين في بعض البلاد ، يحدث البلاد عن عذاب القبر، أو عن آداب قضاء الحاجة ، واليهود يهددون المسجد الأقصى ، أو الأمريكيون والبريطانيون يغزون العراق ، أو العالم كله يتحدث عن كارثة ١١ سبتمبر ، ولكن صاحبنا بمعزل عن هذا كله ، فهو سجون في عالمه الخاص . ولا علاقة له بما يدور في العالم من حوله ، من سلم أو حرب ، ولا بما يجري في أرض الإسلام وربما كانت أمة الإسلام هي الضحية المقصودة فأين وحدة الأمة؟ وأين أخوة الإسلام؟ وأين تضامن المسلمين؟

إن الخطاب الإسلامي لا يجوز له ، ولا يليق به ، ولا يقبل منه : أن يتجاهل ما يجري في عالمنا الكبير اليوم ، بعد ثورة الاتصالات ، وثورة المعلومات .

ولا يجوز له أن يتغافل مما يقال من(صدام الحضارات) أو (حوار الحضارات) . أو ما يقال عن (حوار الأديان) أو (التقارب بين الأديان) أو بصمت عما تريده القوى الكبرى من (تغيير هويتنا) أو تغيير مناهجنا التعليمية ، وإصلاح عقولنا الفاسدة ، وتحريرنا من ثقافتنا المتخلفة !!

---

(١) انظر : في فقه الأولويات ص ١٥ .

لا يجوز للخطاب الديني أن تستهلكه القضايا المحلية إلى حد يجهل ما يشكو منه العالم من اختلال التوازن الكوني ، واختلال التوازن البيئي ، واختلال التوازن الإنساني .

يلزم الخطاب الديني أن ينظر بعينين معاً : أحدهما ترنو إلى الواقع المحلي والإقليمي ، والأخرى ننظر إلى الواقع العالمي . وهذا هو التوازن المطلوب [1].

ونستطيع القول بأن غياب فقه الأولويات يؤدي إلى :

١-إهدار الطاقات : حيث يَقدُم من لا يحسن هذا الفقه على أمور قد تكون من غير تخصصه أو هو من غير أهلها ، أو قد يكون الوقت غير وقتها ، كما هو الحال في من يكررون الحج والعمرة كل عام للمرة العشرين أو قد يزيد .

٢- إضاعة الأوقات: حيث يشغل الإنسان نفسه بعمل لم يحضر وقته،أو قد ذهب جبنه ، وقد تقدم كلام ابن القيم حين عد ذلك عقبة من عقبات الشيطان.

٣- نقصان الثواب : فإن من قدم المرجوح على الراجح وقام بالحسن تاركاً الأحسن لا شك أن ثوابه قد نقص ، ولا أدل على ذلك من قول أنس : كنا مع النبي ﷺ في سفر فمنا الصائم ومن المفطر ، فنزلنا منزلاً في يوم حار أكثرنا ظلاً صاحب الكساء ، ومنا من يتقي الشمس بيده ، فسقط الصوام ، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال رسول الله ﷺ : « ذهب المفطرون اليوم بالأجر »[2].

وكما في قوله ﷺ : « اللهم اغفر للمحلقين . قالوا يا رسول الله وللمقصرين، قال : اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا : يا رسول الله وللمقصرين . قال : اللهم اغفر للمحلقين . قالوا: يا رسول الله وللمقصرين ، قال وللمقصرين [3] ».

وهنا نرى النبي ﷺ يقدم المفطرين على الصائمين لأنه كان الأولى بهم أن يفطروا وهم في سفر ، كما دعا للمحلقين ثلاثاً ، وللمقصرين مرة لتركهم الأولى .

---

(١) انظر : خطابنا الإسلامي في عصر العولمة ص ١٢٧ .

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٠) ومسلم في الصيام (١١١٩) عن أنس .

(٣) رواه البخاري في الحج (١٧٢٨) عن أبي هريرة .